

فلسفة ابن ميمون الأبعاد الدينية الثلاثة في إشكالية التكوين

الأستاذ خالد سعيد



موسى بن ميمون شخصية كان لها دور بارز في صياغة الفكر الديني اليهودي صياغة منهجية سمحت للمعجبين به كيل المديح له والثناء عليه. حتى عد موسى الثاني دون منازع بعد النبي موسى (عليه السلام). أو للنيل منه خت شعار اتهامه بالابتداع في الدين، وإخضاع المقولات الدينية الموروثة للتفكير الإنساني المستورد من المسلمين أو من الفلسفة اليونانية. وما يدعو إلى الاهتمام بحسب الدكتور خالد سعيد أنه استفاد من الفكر الإسلامي ووظف مفاهيم المسلمين في بناء النظام الهقيدي للدين اليهودي.

❖ كاتب وباحث مهتم بالفكر اليهودي.

يعتبر موسى بن ميمون من أعظم فلاسفة اليهود في العصر الوسيط، بل يعتبره المؤرخون اليهود أعظم الشخصيات الفكرية اليهودية في التاريخ اليهودي، حتى ضرب به المثل في ذلك وفقاً للمقولة الشهيرة: (من موسى إلى موسى لم يأتِ كموسى)..

وهذا يعني أنَّ موسى بن ميمون يُعدَّ أعظم شخصية ظهرت في التاريخ اليهودي بعد النبي موسى عليه السلام.

وترجع أهمية موسى بن ميمون في التاريخ الفكري اليهودي إلى عدة أسباب، من بينها: أنَّ موسى قد نظم العقيدة اليهودية ووصفها داخل إطار ديني منظم تنظيماً منهجياً لم يتوفَّر لليهودية في صورة كاملة قبل موسى بن ميمون..

فقد وضع ابن ميمون تسميتها بقواعد الإيمان أو أركان الإيمان اليهودي، وهي ثلاثة عشر ركناً، تأثر فيها ابن ميمون بالعلماء المسلمين، خاصة علماء الكلام في جهودهم الخاصة بشرح العقيدة الإسلامية وتنظيمها^(١).

ومضافاً إلى تنظيم العقيدة اليهودية ووضع أركان الإيمان، قدم موسى بن ميمون للיהودية عملاً فكريًا على قدر كبير من الأهمية، خاصة في ما يتعلق بعملية تبوب وتنظيم الفكر الديني اليهودي؛ فقد ألف موسى بن ميمون كتابه الشهير «مشنا تورا» أو «تشنية التوراة»، وهو المشهور بـ«يد حزقة» وتعني: «يد قوية» بالعربية، وهو كتاب في الشريعة اليهودية، لخص فيه ابن ميمون مادة التلمود الواسعة وشرحها، وكان هدفه من هذا العمل توفير المجهود الذي يبذله العالم اليهودي في الرجوع إلى التلمود لاستخلاص المادة التشريعية المطلوبة.

ولذا يمكن اعتبار كتابه بمثابة تنظيم وتبوب للمادة التشريعية الواسعة الواردة في التلمود، فكتاب «مشنا تورا» يغطي كل الموضوعات التي نوقشت في التلمود، فيشرحها موسى بن ميمون، ويختار أنساب الآراء وأصحابها في الموضوعات التي وردت فيها آراء متعددة في التلمود.

ومضافاً إلى هذا الترتيب المنهجي للتلمود يعود إلى موسى بن ميمون - أيضاً - فضل شرح اليهودية شرعاً فلسفياً معتمداً على الفعل وعلى التراث الفلسفى الأرسطي، ووفقاً للتراث العربي الشارح للفكر الفلسفى اليونانى خاصة فلسفة أرسطو.

ففي عام ١١٩٠ للميلاد أكمل موسى بن ميمون تأليف كتابه الشهير «دلالة الحائرين»، والذي تعود أهميته في الفكر اليهودي إلى أنه يقدم تفسيراً عقلياً للديانة اليهودية يُعدَّ أكمل تفسير من هذا النوع في تاريخ الدين اليهودي.

وقد بدأ موسى بن ميمون هذا الكتاب بشرح الألفاظ التوراتية الهمامة في تقديم هذا التفسير العقلي للיהودية، ثم تناول بعد ذلك الموضوعات الدينية والأخلاقية في اليهودية، وشرحها شرعاً فلسفياً، مستعيناً بالتراث الفلسفى الأرسطي الذى قام بشرحه فلاسفة العرب^(٢).

ولقد هدف موسى بن ميمون من هذا التفسير العقلي لليهودية في «دلالة الحائرين» إلى تقديم الأدلة على عقلانية الديانة اليهودية وموافقتها للعقل، وأنها لا تتعارض مع العقل.

وقد رفض موسى بن ميمون خلال كتابه هذا التفسير الحرفي للتوراة، وقام بتأويل بعض الفقرات الواردة في كتاب العهد القديم، وقدّم تفسيراً علمياً للوصايا العشر وللتبعة وللنظام الأخلاقي في اليهودية.

وكتاب «دلالة الحائرين» موجه إلى علماء اليهود «الحائرين» بين ما تقره الفلسفة العقلية وبين ما أتت به التوراة وشرحها وأخذ به أخبار اليهود، أي: الحائرين بين ما يقضي به العقل وما جاء به النقل^(٣).

وتمهيداً للفرض الذي توّخاه من تأليف هذا الكتاب بين موسى بن ميمون صعوبة دراسة الفلسفة، وما تحتاج إليه من دراسة تمهيدية في المنطق، ومن تطهير للنفس بالأخلاق الفاضلة والتحرّز من الشهوات، وبين الصعوبات القائمة في التوفيق بين الحكمة والشريعة، وأولها أن الكلمات التي وصف بها الله في التوراة (ومقصود أسفار العهد القديم كلها) هي ألفاظ مشتركة المعاني، لهذا يحتاج الأمر أولاً إلى تفسير هذه الألفاظ المشتركة^(٤).

وهو ما تسبّب في إثارة أزمة فكرية كبيرة وجدل عظيم استمر لأكثر من قرن بعد موت موسى بن ميمون؛ حيث انقسم المفكرون اليهود بين مؤيد له في شرحه اليهودية شرعاً عقلياً، وبين رافض لهذا الاتجاه العقلي الذي أرساه ابن ميمون في «دلالة الحائرين».

ولقد كتب لفcker بن ميمون واتجاهه العقلي الانتصار في هذا الجدل الذي كان دائراً بين الجماعات اليهودية. وهكذا تتضح أهمية موسى بن ميمون في تاريخ الفكر اليهودي، وأهمية كتابه «دلالة الحائرين» في وضع الأساس العقلي لليهودية.

وتحب الإشارة إلى دور الفكر الإسلامي المؤثر في عمل موسى بن ميمون العقلي، خاصةً كما ي يبدو في «دلالة الحائرين»؛ فقد استفاد موسى من خلال استيعابه لهذا التراث من أن يعطي لليهودية نظاماً عقائدياً وتفسيراً عقلياً مستفيداً من الجهود العلمية الإسلامية في شرح الإسلام ووضع أسسه العقائدية والعلقية^(٥).

تمهيد.. عن الفلسفة اليهودية

«الفلسفة من أعضاء الجماعات اليهودية» عبارة ذات مقدرة تفسيرية وتصنيفية عالية (بالقياس إلى عبارات مثل «الفلسفة اليهودية» أو «الفلسفة اليهود»).

ويمكن أن نقسم هؤلاء الفلاسفة من منظور موضوع فلسفتهم: فهناك من يتعامل اليهودية مدارسها الفكرية وتياراتها الدينية

مع اليهودية وبعض المشكلات الفلسفية المرتبطة بها، وهناك من يتعامل مع القضايا الفلسفية العامة، وإن تعرّض لقضايا يهودية فهو يتعرّض لها بشكل عرضي.

وتحتة محاولات يبذلها بعض المفكرين الذين يتبعون الموقف التحليلي من اليهودية ويدرسونها بطريقة منهجية، فإذا كان المفكّر غير يهودي فإن ثمرة فكره تكون جزءاً من الدراسة الفلسفية للدين، أما إذا كان المفكّر يهودياً مؤمناً بالعقيدة اليهودية فإن الثمرة تكون اللاهوت اليهودي أو دراسة أصول الدين.

وغميّ عن القول: إن المفكّر من أعضاء الجماعات اليهودية حين يحاول أن يتأمل عقيدته فإنه - شاء أم أبى - يطبق المقولات الفلسفية السائدة في عصره على اليهودية.

ولا يمكن الفصل بين الجانب التحليلي والجانب التركيبي؛ فالتحليل مثل التركيب كان يتم من خلال المقولات الفلسفية السائدة في الحضارات التي كان الفيلسوف من أعضاء الجماعات اليهودية يعيش بين ظهرانيها.

ومن ثم لا يمكن الحديث عن «فلسفة يهودية»، وإنما عن محاولات قام بها مفكرون من أعضاء الجماعات اليهودية لتطبيق النظم الفلسفية المختلفة على العقيدة اليهودية والمزاوجة بينهما، وهي محاولة لا تسم بكتير من التجانس؛ نظراً لوجود الجماعات اليهودية داخل تشكييلات حضارية مختلفة تؤثر كلّ منها في المفكرين بطريقة مختلفة. لذا.. فإن دراسة فكر هؤلاء لا يكون إلا بالعودة إلى الحضارات التي يعيشون بين ظهرانيها^(٣).

والعهد القديم . مثله مثل أي كتاب مقدس . لا يحوي نسقاً فلسفياً واضحاً، وإنما يستند إلى نسق كامن مركّب يعبر عن نفسه في العقائد الأساسية الخاصة بطبيعة الخالق والخلق واللوحي والتوحيد والعدالة الإلهية ومعنى التاريخ، وهلم جرا.

كما أن التراث الديني اليهودي . من خلال الأجداد^(٤) . كان يحاول الإجابة عن أسئلة فلسفية بطريقة غير فلسفية من خلال الرموز والقصص.

وتوجد تساؤلات فلسفية في كلّ من التلمود وكتب القبّالاه^(٥) ، ولكن الإجابة عليها لا تتم بالطريقة الفلسفية المنهجية، وإنما من خلال الأسطورة والأمثلة والصورة والمجاز.

ولم يظهر التفكير الفلسفي المنهجي بين اليهود، إلا في القرن الأول قبل الميلاد في فلسفة فيلون السكندري الذي حاول المزاوجة بين الفلسفة اليونانية (الأفلاطونية والرواقية) والعقيدة اليهودية.

ويبدو أن اليهودية وجدت نفسها دين أقلّيات متاثرة تواجه دينين سماوين توحيديين تتبع كلّ منهما أمبراطورية متaramية للأطراف وترفض كلّ منهما اليهودية، ولذا ظهر فكر

دين يهودي يحاول تفسير هذا عقلياً، ويرمي إلى الدفاع عن اليهودية وإثبات شرعيتها^(٤).

وبصفة عامة، لم تُتبع الفلسفة اليهودية من مصادر يهودية؛ لأنَّ التيار الفلسفـي الذي بدأ في اليونان منذ ٢٥٠٠ سنة ظل ملتزماً في مساره - رغم المحاولات التي طرأت عليه بما في ذلك المعالجة اليهودية.

وبعبارة أخرى: لم تكن الفلسفة اليهودية في العصور الوسطى إلا فلسفة تمت مواعيمتها للموروثات اليهودية، وذلك عن طريق جانب مشابه بين الفلسفة وتلك الموروثات. لذلك.. فإنَّ المؤلفات التي تدخل في إطار «الفلسفة اليهودية» ليست فلسفة خالصة؛ فهي في الغالب عبارة عن تفسيرات وشروح سواء للكتب المقدسة أو للمؤلفات الفلسفية (أرسطو، وأبن رشد...). وبصفة خاصة.. كانت الفلسفة في العصور الوسطى تعنى مجموعة من تفسيرات العالم وظواهره. وهذه التفسيرات موروثة عن الفلسفـة اليونانية الـقدماء في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد لدى أفلاطون وأرسطو^(٥).

التعريف بموسى بن ميمون

فليسوف يهودي، عالم لاهوتي بالديانة اليهودية، وطبيب وصيدلي..

اسمه الكامل: أبو عمران موسى بن ميمون القرطبي.

وعلى الرغم من مكانته العظيمة لدى اليهود، فإنه لم يقم أحد من اليهود المعاصرين والتاليـن بترجمة حياته، ومصدرنا الوحيد عن حياته هو المؤلفون العرب المسلمين، وعلى رأسهم ابن القفطي في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحـكماء» (نشرة ليبرت، ص ٣١٧ - ٣١٩)^(٦).

ولد موسى بن ميمون في مدينة قرطبة الواقعة في الجزء الجنوبي الغربي من الأندلس، وشهدت ظهور العديد من الشخصيات الفكرية اليهودية خلال العصر الذهبي للثقافة اليهودية في الأندلس، والممتد من القرن الثامن الميلادي إلى القرن الثالث عشر الميلادي.

وقد بـرـز من هذه الشخصيات الفكرية أخبار وحكماء وأطباء ومسـرـرون وشعراء وفلاـسـفة، وكـلـمـهـمـ قد أـصـبـحـ فـكـرـهـمـ دـعـامـةـ للـثـقـافـةـ اليـهـودـيـةـ إـلـىـ يـوـمـنـاـ هـذـاـ.

وفي قرطبة التي تـعدـ مركزـاـ ثـقـافـياـ كـبـيرـاـ، ولـدـ مـوسـىـ بنـ مـيمـونـ عامـ ١١٢٥ـ مـ، ونشأـ فيـ منـاخـ ثـقـافـةـ عـظـيمـ أـثـرـ عـلـىـ تـكـوـيـنـهـ الفـكـرـيـ وـالـثـقـافـةـ تـأـثـيرـاـ بـعـيدـ المـدىـ؛ فـمـدـيـنـةـ قـرـطـبـةـ كـانـتـ حـاـفـلـةـ بـالـعـلـمـاءـ وـالـفـلـاسـفـةـ مـنـ الـمـسـلـمـينـ وـالـيهـودـ فيـ ذـلـكـ الـعـهـدـ.

فـفيـ ظـلـ هـذـهـ الـظـرـوفـ نـشـأـ اـبـنـ مـيمـونـ، حـيـثـ تـعـدـ أـسـرـتـهـ مـنـ الـأـسـرـ الـيهـودـيـةـ الـعـرـيقـةـ، وـكـانـ أـفـرـادـهـ مـنـ عـلـمـاءـ الـدـيـنـ وـالـقـضـاءـ وـالـحـاـخـامـاتـ، وـلـقـدـ أـرـجـعـ بـعـضـ الـبـاحـثـينـ نـسـبـ هـذـهـ الـأـسـرـ إـلـىـ نـسـلـ الـحـبـرـ رـابـيـ يـهـودـاـ هـنـاسـيـ، وـهـوـ جـامـعـ أـسـفـارـ الـمـشـنـاـ، بلـ إـلـىـ الـمـلـكـ دـاـوـدـ نـفـسـهـ^(٧).

ويُعَرِّفُ العرب عن موسى بن ميمون: بأبي عمران موسى بن ميمون عبيد الله. ويُعرف عند الأوروبيين بـ Maimondes. ويسميه اليهود: ربئو موشيه بن ميمون، ويطلقون عليه اختصاراً Rambom، وهي كلمة مركبة من الحروف الأولى لـ Rabbi = الحبر أو الحاخام، Moses = موسى، Ben = ابن، و Maimon = Mosche = ميمون.

وتطلق عليه بعض كتابات العصور الوسطى النصرانية: موسى المصري Moses Aegyptiacus، ومن المتمسّكين بهذه التسمية القدّيس توما الإكويوني. ويطلق عليه أحياناً: موسى الثاني، مقابل موسى الأول، وهو سيدنا موسى بن عمران^(١٣).

لمحة عن حياته:

لقد تأثرت الأوضاع السياسية لليهود في الأندلس بالأوضاع السياسية العامة التي حلّت بالأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي؛ فقد مرّ الأندلس خلال هذا القرن بحالة من عدم الاستقرار السياسي نتيجة للصراعات السياسية المتعددة، والتي كان من آثارها تغيير نظم الحكم وتولي الحكومات المتعارضة على حكم الأندلس.

وكان من الضوري أن تترك هذه السياسة المتعارضة والمعصبة أثراً كبيراً على الأوضاع اليهودية خلال القرن الثاني عشر، فاضطر الكثير من اليهود الذين رفضوا الدخول في الإسلام إلى الهجرة إلى البلاد المسيحية القريبة، وكذلك إلى البلاد الإسلامية البعيدة عن نفوذهم، فاتجه عدد منهم إلى بلاد المغرب العربي وإلى مصر وببلاد المشرق العربي والإسلامي.

ولقد كان من بين الأسر اليهودية التي تعرضت لهذا الاختيار الصعب بين الدخول في الإسلام أو الطرد أسرة العالم اليهودي الكبير موسى بن ميمون؛ فقد نزحت أسرته من قرطبة قاصدة المرية، ومنها إلى فاس، ومن فاس اتجهت الأسرة إلى مصر حيث استقرت في مدينة الفسطاط منذ قドومها على مصر في عام ١١٦٥ م، وقد توفي بها موسى بن ميمون عام ١٢٠٥ م^(١٤).

وفي مصر وجدت أسرة موسى بن ميمون معاملة مختلفة تماماً؛ فقد كانت الأوضاع السياسية في مصر أوضاعاً ممتازة بالنسبة للجامعة اليهودية بها، ما يسمح بازدهارها ونموها الفكري ومشاركتها الفعالة في جوانب وأنشطة الحياة المختلفة للمصريين.

فقد كان يحكم مصر زمن هجرة أسرة موسى بن ميمون إليها السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، والذي جمع في مجده أعظم علماء عصره ومفكريه، حتى أصبح موسى بن ميمون الطبيب الخاص لصلاح الدين الأيوبي وأسرته ووزرائه وأعضاء بلاطه، واستمر في عمله كطبيب مع ابنه الملك الأفضل علي^(١٥).

تعليمه

تلقى موسى بن ميمون دروسه الأولى في الأندلس التي كانت ت湧 في ذلك الوقت بكثير من التيارات الدينية والعلمية والفلسفية المختلفة، التي تحمل في طياتها معارف وفلسفات اليونانيين وعلوم المسلمين وفلسفتهم وأداب التلمود وعلوم اليهود وشريعتهم.

وفي ظل هذه البيئة التي انصرفت فيها كل تلك الثقافات المختلفة المقررة باليونانية والسريانية والعبرية وغيرها من اللغات نشأ موسى بن ميمون وشب علمياً وفلسفياً دينياً، فاهم الأب ميمون بتعليم ابنه موسى التوراة والتلمود وغيرها من علوم الدين اليهودي^(١٦).

وتلمنذ موسى كذلك على أيدي علماء المسلمين حاملي مشعل الحضارة والعلم في ذلك الحين، فاطلع على كتابات المسلمين في المنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية وبخاصة علم الطب.

ولم يقف موسى عند المنتج الحضاري الإسلامي فحسب، بل إنه اطلع كذلك على علوم الأوائل التي درسها المسلمون في الأندلس، و شأنه في ذلك شأن كل مثقف؛ فإنه كان يجيد إلى جانب العربية (لغة دينه) اللغة العربية لغة الحياة اليومية ولغة العلم في ذلك الوقت، إلى جانب غيرها من اللغات التي تساعد على توسيع مداركه ومعرفة ثقافات الحضارات القديمة والمعاصرة له.

فقد أتقن موسى العربية بلهجاتها، كما كان متبحراً في التلمود، وكانت العربية الفصحى بشتى لهجاتها العامية، وبخاصة عربية حارات اليهود التي هي لغة الأم، وكان طلاق اللسان بالأسبانية القديمة، وكان متيناً في الحساب والرياضيات والهندسة والمساحة والفلك، ما يجعلنا نشعر بأنه كان على علم كاف باللاتينية واليونانية، وربما عرف البربرية في السنوات الطويلة التي قضتها في المغرب يتعلم الطب.

ولتتمية هذه المعرفة المهنية كان بحاجة إلى دراسة واسعة بعلم الصيدلة وخصائص النباتات في صناعة الأدوية، خصوصاً وقد اشتهر في مصر بالطب خاصة^(١٧). ومن شيوخه وأساتذته الذين استفاد منهم كثيراً: يوسف بن صديق الأندلسي الذي كان لدروسه أثر عظيم في تكوين عقلية ابن ميمون العلمية. ومن أساتذته أيضاً: ابن أفلح الأشبيلي، الذي درس عليه بالأندلس علم الفلك؟ وتتأثر كذلك بابن طفيل وابن رشد.

وعلى الرغم من أنَّ ابن رشد وابن ميمون ولداً في مدينة واحدة هي قرطبة، وعاشا في فترة واحدة هي القرن الثاني عشر الميلادي. - فابن رشد ولد قبله بنحو سبع سنين، وتوفي قبله بنحو سبع سنين. إلا أنَّ أغلب الباحثين يؤكِّدون على أنهما لم يجتمعوا رغم تأثر ابن ميمون بآراء ابن رشد، وهذا يبدو واضحاً في مؤلفه «دلالة الحائرين».

قام ابن ميمون في اليهودية بالدور نفسه الذي قام به ابن رشد في الإسلام، وهو محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة، وهو ما قام به بعد ذلك توما الإكوانيني في النصرانية، وانتشرت فلسفة ابن رشد التي تحمل في طياتها روح أرسطاطاليس في الأوساط اليهودية بفضل ابن ميمون الذي تأثر بدوره هو الآخر بأرسطاطاليس.

ولقد تغفلت الأرسطاطالية الرشيدية في الحياة اليهودية الفكرية، حتى قال غليوم الأقرني: «لم يبقَ بين اليهود الخاضعين للعرب واحدٌ لم يترك دين إبراهيم ولم يفسده ضلالات العرب أو ضلالات الفلسفه».. وذلك حفظ نفراً من الباحثين إلى القول: إن قيمة ابن رشد في الفكر الفلسفى لم يعترفها سوى اليهود الذين قاموا بنقل تعاليمه إلى أوروبا.

وبالنسبة لطبه: فقد درس ابن ميمون الطب في بلاد الأندلس والمغرب العربي أثناء إقامته هناك، ولكنه لم يزاول هذه المهنة في تلك الديار، واكتفى بالقراءة والمعرفة النظرية، وبعد انتقاله إلى مصر ووفاة أخيه الأصغر داود . عائل الأسرة الوحيدة - اضطر موسى إلى العمل بمهنة الطب ليدير حاجات الأسرة.

ويصفه ابن أبي أصيبيعة (ت. ٦٤٣ هـ) بأنه أوحد زمانه في مهنة الطب، إلى جانب أنه كان متوفناً في كل العلوم، وهذه الشهادة تبين لنا منزلته الطيبة ومكانته العلمية بين أقرانه.

ومن دلائل ذلك، طلب ريكاردوس الأول . المشهور بـ «ريتشارد قلب الأسد» (١١٥٧ - ١١٩٩ م) . ملك إنجلترا وقائد الحملات الصليبية في تلك الآونة . ومقره عسقلان . أن يصحبه، لكنه رفض وأثر البقاء في خدمة السلطان الفاتح الناصر صلاح الدين الأيوبى، ولقد خدم ابن ميمون كذلك من بعده ابنه الأفضل على (١١٩٨ - ١٢٠٠ م)^(١٨).

إشكالية إسلامه.. وتأثيرها على فلسفته:

لما استولى الموحدون على قرطبة في سنة ٥٤٢ هـ. خيروا اليهود والنصارى فيها بين الإسلام أو الهجرة، فهاجر ميمون عن قرطبة وتنتقل بين بلاد الأندلس^(١٩)، ولما عزم على الإقامة بالمريقة استولى عليها الموحدون، فارتحل إلى مدينة فاس بالمغرب بدعوة من يهودا بن سوسان الذي كان آنذاك الحبر الأعظم لليهود في مدينة فاس، وكان انتقاله مع أولاده الثلاثة في ١١٥٨ م^(٢٠).

وثمة أسئلة تواجهنا هنا حول إسلامه

هل التنقل والترحال معناه عدم اعتناق موسى بن ميمون الإسلام؟ وهل أظهر الإسلام في الأندلس والمغرب العربي وصلى وصام حتى يستطيع البقاء هناك إلى أن تأتيه الفرصة للرحالة إلى مكان آخر آمن يستطيع فيه إظهار يهوتيه؟ وهل أظهر الإسلام في الأندلس والمغرب العربي ثم ارتد إلى اليهودية عندما سنت له الفرصة المؤاتية في مصر حيث الحرية الدينية وتسامح الحكماء؟

يذكر ابن أبي أصيبيعة أنه أسلم في المغرب ولكنه ارتد في مصر، فيقول: «إنَّ الرئيس موسى كان أسلم في المغرب وحفظ القرآن واشتغل بالفقه، ثُمَّ إنَّه لِمَا توجَّه إلى الديار المصرية وأقام بفسطاط مصر ارتد». وهذا عين ما يذكره القبطي (ت. ٦٤٦ هـ). أيضاً، الذي يرى أنَّ ابن ميمون أظهر الإسلام فحسب وأبطن اليهودية، وحتى لا يفتضح أمره ألم نفعه بأداء فروض الإسلام.

وبالجملة.. فإنَّ مشكلة إسلام موسى بن ميمون من العسير الوصول فيها على يقين؛ فلكل فريق أدلة وحججه التي تدعم موقفه، ولكنه لما كانت الشريعة اليهودية تجيز التحول الديني الاضطراري، وأجاز ذلك ابن ميمون نفسه؛ حتى يتمكَّن اليهودي من الانتقال إلى مكان آخر يستطيع فيه ممارسة شعائره الدينية، لذلك من المرجح أنَّ ابن ميمون أظهر الإسلام لينجو بنفسه من القتل، وارتد عندما وصل إلى القاهرة حيث التسامح الديني والحرية العقائدية^(٢١).

مؤلفات ابن ميمون

ترك ابن ميمون كثيراً من الأعمال التي تتناول الموضوعات الطبية والرياضية والدينية والفلسفية، وتلك الأعمال تبيَّن لنا مدى اطلاعه على ثقافات الحضارات السابقة وإمامته بعلوم اليونان ومعرفته بجهود العرب والمسلمين العلمية والفلسفية والدينية..

وخدع الأعمال حتى:

المؤلفات الطبية:

درس ابن ميمون - كما ذكرنا سابقاً - الطب في الأندلس والمغرب العربي، ولكنه لم يمارسه هناك عملياً، ومارسه في مصر ليسَ حاجات أسرته، وألف أعماله الطبية باللغة العربية لغة العلم والحياة اليومية في تلك الأونة.

وتلك الأعمال ألفها في مصر (١١٦٧ - ١٢٠٠ م)، وكانت موجهة للسلطان والوزراء والأغنياء وأقرانه من الأطباء، ونُقلَّت أغلب تلك الأعمال إلى اللغة العبرية واللاتينية، وترجم بعضها على الألمانية والفرنسية^(٢٢).

وأعماله الطبية هي على النحو التالي:

١- فصول موسى أو فصول القرطبي أو كتاب الأمثال الطبية كما ينته ويل ديورانت.

وهذه الفصول خمسة وعشرون فصلاً، تشمل على ألف وخمسمائة عبارة قصيرة تتناول كُلَّ فروع الطب، وتلك الفصول أكبر مؤلفاته الطبية حجماً وشهرة، وترجمت اليهودية مدارسها الفكرية وتياراتها الدينية

إلى العبرية واللاتينية، وختم ابن ميمون هذه الفصول بمقالة ناقش فيها التناقضات الحادثة في كلام جالينوس (١٢٩ - ١٩٩ م) بصيغة فلسفية.

٢- كتاب المختصر لكتب جالينوس.

٣- مقالة في السموم والتحرّز من الأدوية القاتلة، وهي موجهة إلى القاضي الفاضل، ولذلك سميت بـ «المقالة الفاضلية».

٤- وضع مقالة للملك الأفضل في تدبير الصحة، تسمى بـ «المقالة الأفضلية»، وفيها يشير إلى علاج الحالات النفسية.

٥- مقالة في البواسير، وجهها لشاب من الفضلاء من أهل بيت شريف، عرض فيها لآراء بعض أطباء المسلمين في هذا الموضوع، أمثال ابن سينا.

٦- مقالة في الريبو، موجهة لمريض من النبلاء كان يعاني آلاماً شديدة في رأسه، وتحدّث فيها عن أسباب هذا المرض.

٧- مقالة في شرح فصول أبقراط (٤٦٠ - ٢٧٧ ق.م.)، وكان يستخدمها موسى دائمًا في علاج مرضاه، ووضع لها موسى تعليقات وهوامش.

٨- مقالة في الجماع، موجهة إلى سلطان حمام الملك المظفر تقى الدين أبي سعيد عمر ابن نور الدين (١١٧٩ - ١١٩٢ م)، تحدّث فيها عن الجماع، وأحوال المخالطة الجنسية.

٩- مقالة شرح العقار، وهي مكونة من أربعمائة وستة وفصول، يصف فيها مختلف العقاقير.

١٠- مقالة في الأعراض، وهي آخر مقالة كتبها ووضعها أثناء مرضه.

المؤلفات الرياضية:

كان ابن ميمون حاذقاً و Maherأً في الرياضيات ، وله فيها تصانيف حسنة هي:

١. إصلاح كتاب الاستكمال لابن أفلح الأشبيلي في الهيئة مع يوسف بن عقين المعروف عند العرب بـ: يوسف بن يحيى بن إسحاق السبتي المغربي، فهذه بعده بعده أنّ كان تخليطاً.

٢. إصلاح كتاب الاستكمال لابن هود في الرياضيات^(٣).

المؤلفات الدينية:

اشتهر موسى كطبيب ورجل دين، فهو رجل دين أعاد لليهودية تماسكها وحيويتها

من خلال أعماله التي كان لبعضها أثر كبير على الدين اليهودي؛ فبسببها انقسم اليهود إلى فريقين متعارضين: أحدهما يؤيد موسى، والآخر يعارضه.

ومن ذكر تلك المؤلفات حسب أهميتها؛ لأنَّ ثمة مزاجاً بين الفكر الديني والفكر الفلسفي لموسى بن ميمون في تلك الأعمال:

١- تثنية التوراة:

«تثنية التوراة» أو «مشنا تورا» Mishneh Torah ، وتعني: تكرار الشريعة، أي: الكتاب الذي يلي التوراة ومن بعده المشنا.

وذلك التسمية فقد بعض اليهود عليه، ولكن بعض الباحثين يرى أنَّ الكلمة «مشنا» تعني: تعاليم، وبالتالي تعني: «مشنا تورا» تعاليم التوراة، وهذا هو التفسير المرجح.

ويتكون هذا الكتاب من أربعة عشر كتاباً، لذلك يرجح بعض الباحثين أنَّ «مشنا توراة» تعني: «يد حزقاه» = اليد القوية، فالإباء والدال ترمزان للعدد «أربعة عشر»^(٤).

اعتمد موسى بن ميمون في هذا العمل على التلمود وشروحه، وهو يحاول فيه جمع كل قوانين أسفار موسى عليه الخمسة، وجمع قوانين المشنار والجمارا^(٥) إلا قليلاً.

يحاول في هذا العمل الضخم أنْ يرتب التلمود وبيوبه وينظمه ويقوم كذلك بشرحه، وهو في الواقع تقني للدين اليهودي.

ووضع موسى بن ميمون هذا العمل باللغة العبرية، واستغرق تأليفه عشر سنوات، وأسلوبه يشبه أسلوب المشنا.

وعندما أخرجه موسى انقسم اليهود إزاءه إلى مؤيدین ومعارضین؛ فنجد كثیراً من اليهود والأخبار في تأليفهم الدينية يتأثرون به.. ومن دلائل انتشاره أيضاً وتأييد اليهود له: تلك القصيدة التي قرضاها الشاعر اليهودي يهودا حريري بمناسبة صدور هذا العمل الكبير.

وفي مقابل ذلك الإقبال الشديد نجد المعارضين . وعلى رأسهم إبراهيم بن داود . ينددون بموسى؛ لأنَّه في هذا العمل اعتمد على كثیر من النظريات الفلسفية غير المستقة من مصادر يهودية، كذلك بسبب حذفه أسانيد الرواية اليهودية.

٢- السراج:

تفسير مفصل للمشنا، بدأ موسى بن ميمون تأليفه في سن الثالثة والعشرين، ولكنه عجز عن إتمامه بسبب التقل والترحال وموت أبيه وأخيه، ولكنه أتم تأليف هذا الكتاب سنة ١١٦٨ م.

وهذا العمل بحث في الرواية والإسناد عند اليهود. وقد أعطى هذا العمل موسى ابن ميمون منزلة كبيرة؛ نظراً لغزاره مادته وصدق أحکامه ووضوح أفكاره. ولقد ألف هذا الكتاب باللغة العربية حتى يكون ميسراً ليهود الشرق وينال إعجابهم وتقديرهم، ولكنها على العكس لم ينل إعجابهم، إلا أنه عندما وقع في أيدي يهود المغرب والأندلس وجنوب فرنسا ونال إعجابهم وتقديرهم^(٢٣).

ووضع موسى بن ميمون في كتابه «السراج» قواعد وأسس العقيدة اليهودية أو قواعد الإيمان بها، وهي «الأصول الثلاثة عشر»، ولقد أوصى أن يتمسك بها كلّ يهودي.

وأهمها ما يلي:

- ١- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ الخالق تبارك اسمه هو الموجَد والمُدبِّر لِكُلِّ المخلوقات، وهو وحده الصانع لِكُلِّ شيء في ما مضى وفي الوقت الحالي وفي ما سيأتي.
- ٢- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ الخالق تبارك اسمه لا يشبهه في وحدانيته شيء بأية حال، وهو وحده إلينا، كان منذ الأزل، وهو كائن وسيكون إلى الأبد.
- ٣- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ الخالق تبارك اسمه ليس جسماً، ولا تحده حدود الجسم، ولا شبيه له على الإطلاق.
- ٤- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ الخالق تبارك اسمه هو الأول والآخر.
- ٥- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ الخالق تبارك اسمه هو وحده الجدير بالعبادة، ولا جدير بالعبادة غيره.
- ٦- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ كلام الأنبياء حق.
- ٧- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ نُبُوَّة سيدنا موسى عليه السلام كانت حقاً، وأنَّه كان أباً للأنبياء: من جاء مِنْهُمْ قبله، ومن جاء بعده.
- ٨- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ كُلَّ التوراة الموجودة الآن بأيدينا التي أعطيت لسيدنا موسى عليه السلام.
- ٩- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ هذه التوراة غير قابلة للتغيير، وأنَّه لن تكون شريعة أخرى سواها من قِبَلِ الخالق تبارك اسمه.
- ١٠- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ الخالق تبارك اسمه عالم بكل أعمال بني آدم وأفكارهم.
- ١١- أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأنَّ الخالق تبارك اسمه يجزي الحافظين لوصاياته، ويعاقب المخالفين له.

١٢ - أنا أؤمن إيماناً كاملاً بقيامة الموتى في الوقت الذي تبعث فيه إرادة الخالق تبارك اسمه وتعالى ذكره الآن وإلى أبد الآبدين^(٣٧).

٣ - رسالة في التحول القهري من دين إلى آخر:

وتسمى أيضاً. رسالة «في سبيل تقدس اسم الله»، ويطلق عليها بعض الباحثين «رسالة الردة». ألفها موسى سنة ١١٦٠ م بالأندلس بسبب ما تعرض له اليهود من اضطهادات واعتداءات، وفيها يحث اليهود على الهجرة بدلاً من الموت في بلد لا يستطيعون فيه ممارسة شعائرهم الدينية. وترجمت تلك الرسالة إلى العبرية والإنجليزية.

٤ - رسالة إلى يهود اليمن:

أرسلها موسى إلى الجالية اليهودية في اليمن بواسطة تلميذه يعقوب نثائيل الفيومي، وترجمها شموئيل بن تبون إلى العبرية، ويعتبر بها ابن ميمون إلى أهل اليمن بسبب ضغط الفاطميين عليهم ليتحولوا إلى الإسلام^(٣٨).

المؤلفات الفلسفية لابن ميمون:

١ - رسالة في المنطق:

تتكون من أربعة عشر فصلاً، يشرح فيها المنطق لمن يريد أن يدرسه، ووضع تلك المقالة لليهود ذوي الثقافة العربية، أولئك المحتاجين لدراسة المنطق والفلسفة الإسلامية، ألفها بالعربية ، وترجمها موسى بن تبون إلى العبرية، وترجمت إلى اللاتينية والألمانية. وبصنيفها البعض ضمن أعماله الدينية، ولكنها تبعاً لموضوعها . المنطق . تدرج ضمن الأعمال الفلسفية.

٢ - رسالة عن البعث:

تلك الرسالة هامة جداً؛ لأنها تجلي لنا عقيدة البعث عند اليهود، تلك العقيدة الغامضة جداً عندهم. ويشير القبطي إلى أنَّ ابن ميمون في تلك الرسالة يُبطل المعاد الشرعي، ولذلك أنكرها عليها علماء اليهود، فاضطره إلى إخفائها إلا عن من يرى رأيه.

٣ - دلالة الحائرين:

ترجم الباحثون «Moreh Neboukim» إلى «دلالة الحائرين»، و «دليل الحائرين»، و «دليل الحياري»، و «مرشد الحائرين»، في مقابل الترجمة الإنجليزية: The Guide of the perplexed. وهو مؤلف صعب على من يرتاد الفلسفة اليهودية عامةً إلا يتعرّض له، والذي يمثل الامتزاج بين الفكر الديني والفكر الفلسفي عند موسى بن ميمون.

المقصود بالحائرين هؤلاء المتعلمين الذين احتاروا في قضايا كثيرة يبدو فيها التعارض واضحاً بين العقل والدين. وهذه القضايا المحيرة عالجها من قبل موسى بن ميمون كثيراً من الفلسفه المسلمين أمثال ابن سينا وابن رشد.

وهذا الكتاب - الذي بدأ ابن ميمون تأليفه سنة ١١٨٦ م وانتهى منه سنة ١١٩٠ م - يشتمل على كثير من الآراء الدينية والفلسفية التي حصلها من الموروثات الدينية والفلسفية والأدبية اليهودية، فهو على الرغم من تأثره بسعدية الفيومي وابن باقودا، إلا أنه لم يشر إليهما إلا نادراً، واستفاد كذلك من آراء متكلمي المسلمين وفلسفتهم وأدبائهم، واكتسب من المسلمين - أيضاً - فلسفة أرسطاطاليس وما وضعه عليها من شروح كُلّ من الإسكندر الأفروديسي وثامسيطيوس وبحيى النحوي، وعرف كذلك من كتابات أرسطاطاليس المترجمة للعربية آراء الفلسفه السابقين عليه أمثال بطليموس وجالينوس..

وبالجملة، لقد حصل ابن ميمون كُلّ المعارف الواردة في الدلالة وغيرها من مؤلفاته من مخالطته لعلماء الأندلس وتودده إليهم. وألف ابن ميمون هذا الكتاب لتلميذه يوسف بن عقين بعد سفره إلى الشام والعراق؛ وذلك بسبب ما تعرض له من حيرة ودهشة في ما يتعلق بالأمور الإلهية، حيث وجهه ابن ميمون له ولأمثاله؛ حتى يزيل ما في نفوسهم وعقولهم من شك ورببة؛ حتى يصلوا - أيضاً - إلى اليقين.

لغة الكتاب وأسلوبه:

كتب ابن ميمون أغلب أعماله بالعربية وأقلها بالعبرية، تلك العربية المكتوبة بحروف عبرية، وتلك المؤلفات أقبل على قرائتها اليهود، كما أقبل على قرائتها المسلمين الذين قرأوها باللغة اليهودية العربية. وكتب ابن ميمون «دلالة الحائرين» باللغة العربية بحروف عبرية، وتلك الطريقة في الكتابة كانت منتشرة في ذلك الوقت بين الكتاب اليهود في الأندلس. واستخدم ابن ميمون تلك الطريقة في الكتابة على نحو ما يرى بعض الباحثين. نظراً لخوفه من المسلمين واليهود معاً.

وخوفه من المسلمين بسبب ما في كتابه من آراء تتعارض كثيراً مع تعاليم الإسلام وخاصة حول قضية النبوة، بالإضافة إلى ما وضعه فيه من آراء تتدد بأفكار المتكلمين المسلمين، ولكنه رغم ذلك يستفيد كثيراً من فلاسفه العرب. وأما خوفه من اليهود فيرجع إلى ما في كتابه من معارضة شديدة للآراء المتوارثة لدى اليهود؛ فقد أحضر الدين اليهودي لفلسفة أرسطاطاليس وفلسفة المسلمين. وقد ثارت ثائرة اليهود على هذا الكتاب، وانقسموا بتصده بین مؤيد ومعارض، على حين لم يلتفت إليه المسلمون ولم يولوه عنایتهم.

ويشبه أسلوب ابن ميمون في «دلالة الحائرين» أسلوب غيره من الكتاب العربي المسلمين في كتاباتهم الدينية والفلسفية، حتى أنَّ الدكتور إسرائيل ولفسون - المستشرق والكاتب الكبير، ينعته بـ«موسى بن ميمون العربي»؛ فهو يقتبس كثيراً من المفردات العربية مصدرها القرآن الكريم والمؤلفات الفقهية، ولكن تغلب عليه دائماً يهوديته؛ فتجد الروح اليهودية تبدو واضحة في كتاباته، فهو مثل غيره من الكتاب اليهود يتأثر بتراثه الديني والأدبي.

الغرض من تأليف الكتاب:

يشير ابن ميمون في مقدمته لكتاب الدلالة إلى أنَّ للكتاب غرضين:

الأول: توضيح وتحديد معاني أسماء وردت في كتب النبوة.

والثاني: توضيح أنَّ بعض الأمثل التي وردت في كتب النبوة ما هي إلا أمثال فحسب^(٢٩).

آراء موسى بن ميمون الفلسفية:

شغلت الموضوعات الفلسفية حيّزاً كبيراً من «دلالة الحائرين»، على العكس من الموضوعات الأخلاقية، ونجد أنها تشابهت في ذلك مع الموضوعات الدينية. وقد احتوت تلك الموضوعات الفلسفية على العديد من المضامين: مثل الإدراكات العقلية والحسية التي عن طريقها يبدأ الإنسان في معرفة الله، ومعرفة أنه العقل والعاقل والمعقول. ومن تلك المضامين أيضاً: علوم المتكلمين ومقدماتهم في إثبات وجود الله ووحدانيته. وأيضاً: حركات الأفلاك وأسبابها وتأثيرها على العالم وحداثته، وآراء الفلسفه حول هذا الموضوع.

الإدراكات العقلية والحسية:

يؤكد موسى بن ميمون أنَّ للعقل الإنساني مدارك في طبيعته أنْ يدركها، وفي الوجود موجودات ليس في طبيعته أنْ يدركها، حيث يدرك منها حالة ويجهل حالات، وليس لكون الإنسان مدركاً لبعض تلك الأمور يلزم بأن يدرك كلَّ شيء منها.

ويرى أنَّ الناس يتفاصلون في الإدراكات الحسية مثلاً يتفاصلون في القوى الأخرى، وعلى هذا نجدهم. أيضاً. يتفاصلون في الإدراكات العقلية كواحدة من القوى البدنية، ولا يُعدُّ هذا التفاضل بلا نهاية؛ بل إنَّ للعقل الإنساني حداً يقف عنده، فلا يدرك ما بعده، فثمة أشياء يتشوق الإنسان لمعرفتها وإدراكتها، وثمة أشياء لا يتشوق الإنسان أو يتلهف على معرفتها وإدراكتها، وتختلف الآراء حول الأشياء التي يتشوق الناس لمعرفتها؛ وذلك لتفاوت الإدراك العقلي من إنسان لأخر، ولتفاوت الناس ولتفاصلهم في التلهف على المعرفة والإدراك

العقلاني من إنسان آخر، ولتفاوت الناس وتفاصلهم في التلهف على المعرفة والإدراك أيضاً، وهذا أمر جلي واضح، وأكَّد موسى بن ميمون عليه في كتابه «دلالة الحائرين»^(٣٠). ومن الأمور التي حدث فيها كثير من الاختلاف والتشعب في الآراء: الأمور الإلهية. ومن الأمور التي قلت فيها الاختلافات: الأمور الطبيعية. وتکاد هذه الاختلافات أن تتعذر في الأمور التعليمية.

ويرجع موسى بن ميمون هذا إلى الإلفة والتربية. على حد قوله . بمعنى: أنَّ الإنسان له طبيعته التي تميل إلى إدراك ما تحبه وتألفه، وتعرف وتتأثر عن إدراك ما لا تحبه وتألفه، ولهذا السبب ينأى الإنسان عن إدراك الحقائق ويميل إلى ما اعتاد عليه وألفه من الأمور. ويقرر موسى بن ميمون أنَّ هذا القصور في العقل الإنساني هو رأي الفلاسفة في العقل الإنساني، وليس للشريعة رأي فيه.

ويقارن موسى بن ميمون بعد ذلك بين الإدراك العقلي والإدراك الحسي عند الإنسان، ويرى أنَّ الإدراكات العقلية عند الإنسان يعتريها من حيث تعلقها بالمادة مثلما يعتري الإدراكات الحسية عنده تماماً ..

فالإنسان ينظر بعينه لشيء ما ويدرك ما قوة بصره أنْ تدركه، فإنْ أراد المزيد وأمعن النظر حتى يبصر ما يفوق قدرته فسوف يكل بصره ويتعب حتى أنه لا يستطيع النظر كأول عهده، وكذلك الحال في الإدراكات العقلية؛ فمن يمعن التفكير في أمر يفوق إدراكه يتبلد ولا يستطيع الفهم ولا العودة لسابق عهده في التفكير؛ وذلك لأنَّ القوى البدنية حسية أو عقلية واحدة خاصة في هذا الصدد.

وعلى ذلك يريد موسى بن ميمون أنْ يقول: إنه لا يجيئ الإنسان عقله إلا في ما يستطيع إدراكه، وما لا يمكنه إدراكه فإنَّ إعمال العقل فيه سوف يعود عليه بالأذى وعلى عقله بالكلل، ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ يتوقف الإنسان عن التفكير والإدراك؛ وإنما أراد ابن ميمون من ورائه أنْ يوضح أنَّ للعقل الإنساني ولإدراكه حداً ينبعي أنْ يقف عنده؛ لأنَّه لا يستطيع أنْ يفوقه أو يعلوه..

وهنا يقسِّم موسى بن ميمون الإدراك إلى ثلاثة أنواع:

أولها: إدراك الحيوان

ثانيها: إدراك الأفلاك

ثالثها: إدراك الإنسان

وهي إدراكات مختلفة يفوقها الإدراك الثالث؛ وذلك راجع لأنَّه بالأول والثاني يُستدلَّ على الثالث.

ولا بد من الإشارة إلى بعض الألفاظ التي بلور من خلالها تلك الفكرة الفلسفية، وذلك في مدخله اللغوي، ومن تلك الألفاظ نذكر المجموعة التالية.

فاعتمد موسى بن ميمون على ثلاثة ألفاظ، وهي الأفعال «رأى ونظر وحزى»، وتعطي معنى الإدراك بالعين والذهن والقلب، والتي تؤدي في النهاية لمعنى الإدراك العقلي والحسي، فإذا تأملنا تلك الدلالات السياقية للمصطلحات الثلاثة لوجدناها تجمع على هذا المعنى، أي: الإدراك العقلي والحسي.

وهكذا سخر موسى تلك الألفاظ لتوضح لنا بجلاء الفكرة الفلسفية الخاصة بالإدراكات العقلية والحسية، والتي عن طريقها يصل الإنسان إلى إدراك الله تعالى وإدراك ذاته الطاهرة^(٣١).

وقوله: «إنَّ الْوُجُودَ عَرَضٌ» مأخذٌ من قول ابن سينا: «إنَّ الْمَاهِيَّاتِ يَسْتَوِي لَدِيهَا الْأُمُورُ بِذَاتِهَا فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِالْوُجُودِ، وَإِنَّمَا الْوُجُودَ عَرَضٌ يَحْدُثُ لَهَا».

لكنه لا يوافق ابن سينا في قوله: إنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ تَبْقَى بَعْدَ الْمَوْتِ وَأَنَّهَا خَالِدَةٌ، وإنما يأخذ بما قاله الإسكندر الأفروديسي وغيره من المشائين: من أنَّ الْعَقْلَ الْفَعَالَ هو القادر على البقاء، والعقل الفعال مشترك بين الناس جميعاً وليس فردياً أو خاصاً بفرد دون فرد. وهذا يدل على أنَّ موسى بن ميمون لم يتقييد بالعقيدة الدينية حين رأها تعارض مع ما يقضي به العقل^(٣٢).

وحول إثبات وجود الإله وأنَّه واحد ولا جسم ولا قوة في جسم، يبدأ موسى بن ميمون الجزء الثاني من كتابه «دلالة الحائرين» بعرض أدلة على إثبات وجود الإله ووحدانيته، وأنَّه منزه عن أنَّ يكون جسماً أو قوة في جسم، وأنَّ الموجود الطبيعي الذي يسري عليه الكون والفساد هو وحده الذي يكون جسماً أو قوة في جسم، وهذه الأدلة هي خمس وعشرون مقدمة، برهن عليها أرسطاطاليس وأتباعه من المشائين^(٣٣).

وفي ما يتصل بصفات الله يأخذ موسى باللاهوت السلبي، أعني القول: بأنَّه لا يمكن وصف الله بصفات ثبوتية؛ لأنَّ الله ليس كمثله شيء، لهذا لا يمكن وصف الله بأية صفة، إلا إذا كان معناها يختلف تماماً عن المعنى المفهوم منها في الاستعمال اللغوي الخاص بالإنسان، ولهذا ينبغي أن تفهم كُلُّ الصفات التي تتسبّبها إلى الله على أساس أنها تختلف تماماً عن نفس الصفات منسوبة إلى الإنسان، وهذا ينطبق - أيضاً - على صفة الوجود؛ فالله موجود لا كالموجودات.

ويدعو ابن ميمون إلى المعنى في السبيل السلبي؛ لأنَّ من شأنه استبعاد كثير من الصفات الزائفة التي تُنسب إلى الله.

أما المعرفة الإيجابية في ما يتعلق بالله: فإنَّها تختص فقط بتديير الله للكون وما في

الكون من نظام يكشف عن الحكمة الإلهية، ومثل هذه المعرفة هي التي منحها الله موسى حسب ما ورد في سفر الخروج (اصحاح: ٢٢)، وعلم الإنسان هو في هذه الحدود، وأفعال الله هي الحوادث الجارية في الطبيعة، ومن شأنها لا تهدم، بل هي بالأحرى تديم النظام الثابت للطبيعة، بما في ذلك حفظ النوع البشري وسائر الأحياء.

والله هو العلة الفاعلية والعلة الصورية والعلة الفائية للكون، والله فعل محض وعقل محض، ويأخذ عن الفارابي قوله: إنه ما دام الله لا يعقل إلا ذاته، فإنه هو العقل والعاقل والمعقول في آن معاً^(٣٤).

أفعال الإله تعالى شريفة وтامة وكمالة، فهذا ما تتصل عليه شريعة موسى عليه السلام، ويتفق معها في ذلك النظر العقلي، ولا ينكر ذلك إلا معاند أو مكابر.

وحتى يوضح ابن ميمون ذلك يقسم الأفعال بعامة إلى أربعة أنواع بحسب غايتها:

أ- فعل الباطل، وفيه الفاعل يقصد غاية ما لا تحصل له بسبب بعض الصعوبات التي تعوقه عن الوصول لغايته.

ب- وفعل العبث، لا يقصد فاعله غاية أصلًا.

ج- وفعل اللعب، ويكون للفعل غاية خسيسة غير مفيدة كثيراً أو غير ضرورية.

د- وفعل جيد حسن، الذي يفعله فاعله بقصد غاية شريفة ذات منافع ضرورية، وتحصل هذه الغاية.

وتكون الأفعال بذلك: ما لها غاية وما ليس لها غاية، وتلك الغاية قد تكون شريفة وقد تكون خسيسة، وقد تحصل وقد لا تحصل.

وبالنسبة لأفعال يهوه: فهي من النوع الرابع جيدة حسنة، وهذا ما تتصل عليه الشريعة.

نستنتج من ذلك أن كُلَّ موجود أوجده الإله وُجد بقصد قاصد، وهو تعالى لا يفعل إلا الأصلح والخير على نحو ما اتفق المعتزلة، أي: أن أفعاله تعالى محكمة متقدة كما ذكر الأشاعرة.

وقد يعرض بعض الفلاسفة على ذلك، ويزعمون أن أفعال الإله كلها بحسب مشيئته، وأنها لا غاية لها، ولا يقال: لم فعل؟ بل يفعل الإله ما يريد، وليس ذلك تبعاً لحكمة، وتدخل عندهم أفعال الإله في مجال العبث بل أحبط من العبث؛ لأنها عندهم لا غاية لها ولا فائدة، ويزعمون ذلك لأنهم يعتقدون أن العالم كله لا غاية له، وقالوا بالضرورة بحدث العالم، وأنه كذا شاء لا لعنة أخرى.

والواقع أنَّ كُلَّ ما يريد أنْ يفعله الإله ممكِن، ولا تعلوه عن ذلك موانع، وهذا رأي أهل الشريعة والفلسفه وكذلك ابن ميمون، وهؤلاء جميعاً يعتقدون - أيضاً - أنَّ العالم يَكون عن عدم محض تبعاً لمشيئته وحكمته تعالى^(٣٥).

والنبي لا بدَّ من أن تتوافر فيه قدرة عقلية ممتازة وقوة تخيل ممتازة، فإذا ما وُجدت هاتان القوتان واقتربن بها السلوك الصالح كانت النُّبُوَّة ظاهرة طبيعية، ولا يمكن حرمان صاحبها منها.

والقدرة العقلية للنبي شبيهة . على الأقل في النوع . بالقدرة العقلية لدى الفلسفه، وهي تمكن النبي من تحويل العقل بالقوة إلى عقل بالفعل.

والعقل الفعال هو آخر العقول العشرة، ومجال فعله هو عالم ما تحت فلك القمر، فالإله شرع الشرائع لهداية البشر إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، وينبئ الإله بعضاً من البشر بهذه الشرائع.

وأشار ابن ميمون إلى أنَّ العوام والفلسفه والمتشرعين اليهود اختلفوا في تحديد صفات المتبني من بني البشر، وزعم كذلك أنَّ نُبُوَّة موسى عليه مباينة لِنُبُوَّة غيره من الأنبياء، ووضَّح - أيضاً - حقيقة النُّبُوَّة وصورها ومراتبها.

وبالنسبة للأراء التي قيلت عن النُّبُوَّة . على نحو ما يذكر ابن ميمون - عند الذين يؤمنون بيده ثلاثة:

١- أنصار هذا الرأي . وهم الجهلاء والعوام الذين يصدقون بالنُّبُوَّة . يعتقدون أنَّ الإله يختار من يشاء نبياً.

٢- يرى الفلسفه أنصار هذا الرأي أنَّ النُّبُوَّة كمال في طبيعة الإنسان يحصل عليه بعد ارتياض يُخرج ما في قوة النوع إلى الفعل إن لم يقع عن ذلك عائق، ويقررون كذلك أنَّ الجاهل لا يتبنَّا، وعندهم كذلك أنَّ الإنسان لا يمسِّ غيرنبي ويصبح نبياً، كمن بات معدوم الحال ثم أصبح ذا مال، بل الذي يتبنَّا ضرورة هو الإنسان الفاضل الكامل في نطقياته وخلفياته.

٣- وسير أنصار هذا الرأي على درب الفلسفه باستثناء رأي الشريعة اليهودية . وهذا رأي ابن ميمون - أنَّ الذي يصلح للنُّبُوَّة المتهيئ لها قد لا يتبنَّا أنَّ كُلَّ من يصلح بحسب جبلته وارتاض بحسب تربيته وتعليمه سينبُّا^(٣٦).

وبالنسبة لحقيقة أو ماهية النُّبُوَّة عند ابن ميمون: فهي فيض من الإله بواسطة العقل الفعال على القوة الناطقة أولاً، ثم على القوة المتخيلة، أي: أنه إذا فاضت المقولات عن العقل الفعال . على نحو ما يصرح الفارابي . على جزئي الناطقة (النظرية والعملية) ثم على المتخيلة كان هذا هو الإنسان الذي يوحى إليه بتوصیط العقل الفعال من قبل الإله.

ويشير ابن ميمون إلى أن المتخيلة إنما تقوم بحفظ المحسوسات وتركيبها ومحاكاة طبيعتها، وعندما تكتف المحسوسات عن عملها يفيض على المتخيلة فيض هو سبب المنامات الصادقة، وهو نفسه سبب النبوة^(٢٧).

وعندما دعا موسى عليه السلام فرعون إلى الإيمان بالشريعة اليهودية لم يخف منه، وهذا ما جعل ابن ميمون يتساءل عن سر عدم خوف موسى عليه السلام أو رهبه من فرعون؟! وانتهى ابن ميمون إلى أن الإنسان لديه قوتان هما: قوة الإقدام وقوة الشعور، وعند الأنبياء هاتان القوتان قويتان جداً، بفضلهما يدعون الملوك والطواحيت والجبابرة.

الخاتمة

فلسفة موسى بن ميمون هي فلسفة توفيقية؛ تحاول التوفيق بين الدين والفلسفة لإرضاء كلّ منهما، وهو في ذلك متأثر بفلسفة العرب المسلمين الذين عاش في كنفهم، مثل فلسفات الفارابي وابن رشد وابن سينا وابن طفيل وابن باجة.

موسى بن ميمون فيلسوف يهودي، وعالم لاهوتي بالديانة اليهودية، وطبيب وصيدلي، مفكر عربي إسلاميُّ الحضارة والفكر يؤمن باليهودية^(٢٨)، وعضو في الجماعة اليهودية في أسبانيا الإسلامية.

وكان من الأقوال المأثورة بين اليهود قوله: «لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلا موسى»، فهو أعظم الشخصيات الفكرية اليهودية في التاريخ اليهودي.

كان بعض مؤلفاته من ذيع الصيت وخطورة أفكارها - مثل «تشية التوراة»، و«دلائل الحائرين» أو «دليل الحائرين». ما أدى إلى زيادة عدد أعدائه من اليهود، الذين احشدوا له واتهموه بهم كثيرة، وكان أخطرها أنه يُعمل النظر العقلي في دراسة النصوص الدينية.

مؤلفه «دليل الحائرين» مؤلف من الصعب على من يرتاد الفلسفة اليهودية عامَّةً إلا يتعرض له، والذي يمثل الامتزاج بين الفكر الديني والفكر الفلسفي.

من المرجح أنَّ موسى بن ميمون اعتنق الإسلام في الأندلس مبطنًا يهوديته إلى أنَّ أنتهَ الفرصة المواتية للرحلة إلى مصر حيث الأمان والطمأنينة، فسافر إليها واستقر بالفسطاط، وعندئِد ارتد إلى يهوديته مرَّةً أخرى.

يعتبر البعض موسى بن ميمون من الفلسفه المسلمين، فإذا أخذنا في الاعتبار أنَّ الشهريستاني قد عَدَ حنين بن إسحاق النصراوي فيلسوفاً إسلامياً فإنه لا وجه للتفرقه بينه وبين موسى بن ميمون الإسرائيلي، وكما يُعتبر الفلسفه اليهود المشاركون في الفلسفه الغربية. أمثال اسبيروزا وكارل ماركس - في بلاد الغرب فلاسفه غربيين،

فإن الفلسفه اليهود والنصارى الذين شاركوا في الفلسفه الإسلامية وعاشوا في العالم الإسلامي آنذاك يُعتبرون فلاسفة إسلاميين، وموسى حتى في مناقشاته لنصوص التوراة إنما يصدر عن فكر وثقافة إسلامية، وإنه عندما ينتقد المتكلمين المسلمين يكون نقده لهم بأسلوب خال من الشدة التي ينتقد بها المتكلمون المسلمين بعضهم بعضاً، وإنه يفقد بنى دينه بشكل أشد.. إذن.. فابن ميمون يُعتبر فيلسوفاً إسلامياً^(٣٩).

الهوامش

- (١) أمانى يوسف أحمد منيع: دراسة تحليلية لكتاب موسى بن ميمون «دلالة الحائزين»، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨٩، ص ٥.
- (٢) المصدر نفسه، ص ٧.
- (٣) د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج ٢، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص ٤٩٧.
- (٤) المصدر نفسه، ص ٤٩٨.
- (٥) منيع: دراسة تحليلية، مصدر سابق، ص ٩.
- (٦) د. عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الثالث، الجزء الثاني، الباب الثاني عشر، مدخل: الفلسفة من أعضاء الجماعات اليهودية.
- (٧) الأجاداء: لفظ «أجاداء» أو «هجاداء» آرامي، ويعني: «روى» أو «حكي» أو «قص»، كما يعني – أيضاً – «أسطورة» أو «حدثة فلورية»، وهو مشتق من أصل عبري غير معروف على وجه الدقة، فيقال: إنه من فعل « Hegid » بالعبرية، ويعني بالعربية «قيل» للإشارة إلى القصص الشفوية مقابل القصص المدونة.
- وتقن الأجاداء دائمًا بالهلاخاء، وتُعرف الأجاداء بأنها ذلك الجزء من التعاليم الحاخامية الذي لا يعالج الهلاخاء (أو الجوانب التشريعية أو القانونية). وتستخدم كلمة « هجاداء » أحياناً للإشارة إلى « أجاداء »، وإن كان معظم العلماء يفضلون استخدام كلمة « أجاداء »، على أن يقتصر استخدام كلمة « هجاداء » على الإشارة إلى صلوات عيد الفصح والكتب التي تتضمن الأدعية والصلوات الخاصة بهذا العيد.
- (٨) القبالة: يُعرف التراث الصوفي اليهودي باسم «القبالة» التي مررت بمراحل عديدة، أهمها «قبالة الزوهار»، وتسمى أيضًا «القبالة النبوية» أو «القبالة التوراتية» التي يمكن أن تسمى «القبالة الشيشانية».
- أما كلمة «الصوفية» فيها (داخل النسق الديني اليهودي) دلالات خاصة؛ فهذا النسق يتسم بوجود طبقة جيولوجية ذات طابع حلوى قوي تراكمت داخله، ابتداءً من العهد القديم، مروراً بالشريعة الشفوية، وقد انعكست هذه الحلولية من خلال شيوع أفكار مثل: الشعب المختار، أمّة الروح، الأرض المقدسة.
- (٩) المصدر نفسه.
- (١٠) كوليت سيراط: الفكر الفلسفي في العصور الوسطى، دار نشر سفريات كثير، القدس، ١٩٧٥، ص ٧.
- (١١) بدوي: موسوعة الفلسفة، مصدر سابق، ص ٤٩٧.
- (١٢) منيع: دراسة تحليلية، مصدر سابق.
- (١٣) د. حسن كامل إبراهيم: الآراء الكلامية لموسى بن ميمون والأثر الإسلامي فيها، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢١.
- (١٤) إبراهيم: الآراء الكلامية، مصدر سابق.
- (١٥) إبراهيم: الآراء الكلامية، مصدر سابق، ص ٣٢.
- (١٦) بدوي: موسوعة الفلسفة، مصدر سابق، ص ٤٩٨.
- (١٧) إبراهيم: الآراء الكلامية، مصدر سابق، ص ٢٥.
- (١٨) المصدر نفسه، ص ٢٦.

- (١٩) بدوي: موسوعة الفلسفة، مصدر سابق، ص ٤٩٨.
- (٢٠) سيراط: الفكر الفلسفى، مصدر سابق، ص ٢١٤.
- (٢١) إبراهيم: الآراء الكلامية، مصدر سابق، ص ٣٢.
- (٢٢) إليعير شابيد: فلسفتنا الكبار «الفلسفة اليهودية في العصور الوسطى»، بيروت أحرنوت، ١٩٩٩، ص ١٦٢.
- (٢٣) إبراهيم: الآراء الكلامية، مصدر سابق، ص ٤١.
- (٢٤) سيراط: الفكر الفلسفى، مصدر سابق، ص ٢١٥.
- (٢٥) الجمارا: كلمة آرامية تعنى «التكلمة» أو «الدراسة»، وهي عبارة عن التعليقات والشروح والتفسيرات التي وصفها الفقهاء اليهود الذين يسمون بـ«الشاراح» (أمورائهم) في الفترة من ٢٢٠ - ٥٠٠ م، وهي تأخذ عادةً شكل أسللة وأوجبة. وتعد الجماراه جزءاً من الشريعة الشفوية، لكن تسميتها بـ«الجماراه» أي: «الكلمة» هي من قبيل المجاز؛ فالشاراح لم يكتفوا بالتفسير فحسب؛ بل قاموا بالتعديل؛ حتى تطابق المنشاه ظروف الزمان والمكان، أي: أنهم فعلوا بالمنشاه ما فعله رواة المنشاه بالعهد القديم، وكما أن المنشاه أطول من العهد القديم فإن الجماراه أطول من المنشاه. وهناك جماراتان: فلسطينية وبابلية. والجماراه في مجلتها تجمع بين القانون والمواعظ والقصص.
- (٢٦) إبراهيم: الآراء الكلامية، مصدر سابق، ص ٤٢.
- (٢٧) منبع: دراسة تحليلية، مصدر سابق.
- (٢٨) شابيد: فلسفتنا الكبار، مصدر سابق، ص ١٦٣.
- (٢٩) إبراهيم: الآراء الكلامية، مصدر سابق، ص ٤٥.
- (٣٠) منبع: دراسة تحليلية، مصدر سابق.
- (٣١) المصدر نفسه.
- (٣٢) بدوي: موسوعة الفلسفة، مصدر سابق، ص ٤٩٩.
- (٣٣) إبراهيم: الآراء الكلامية، مصدر سابق، ص ٦٢.
- (٣٤) بدوي: موسوعة الفلسفة، مصدر سابق، ص ٤٥.
- (٣٥) إبراهيم: الآراء الكلامية، مصدر سابق، ص ٦٧.
- (٣٦) سيراط: الفكر الفلسفى، مصدر سابق، ص ٢٣٩.
- (٣٧) منبع: دراسة تحليلية، مصدر سابق.
- (٣٨) المسيري: موسوعة اليهود، مصدر سابق.
- (٣٩) معرض عن الفيلسوف ابن ميمون، نموذج التعددية الثقافية في العصور الوسطى، الموقع الإلكتروني www.qantara.de